Popular proverbs and its social functions in the countryside of the Syrian coast (Anthropological Study in the Coastal Village, Baluran)

Dr. Eva Kharma*

(Received 2 / 7 / 2019. Accepted 16 / 9 / 2019)

□ ABSTRACT □

This study reveals an important aspect of the rural cultural heritage of the Syrian coast, and its presence in rural folk proverbs, with its social-economical, moral and esthical functions.

The popular proverb is one of the most important elements of popular culture in reflecting the relationship between the individual his environment and his social and cultural surrounding, not only by his ability to convey human experiences, but also by formulating these experiences in an artistic popular language that serves the interactive communicative process and paints a picture of the life of society in the Syrian coastal countryside From all sides.

Keywords: popular proverbs, social functions, popular culture.

***Assistant Professor, Department of sociology, Faculty of Arts Humanities, Tishreen University, Syria.**

المثل الشعبي ووظائفه الاجتماعية في ريف الساحل السوري
(دراسة أنثروبولوجية في قرية بللوران الساحلية)

الدكتورة إيفا خرما *

(تاريخ الإيداع 2 / 7 / 2019. قبل للنشر في 16 / 9 / 2019)

□ ملخّص □

تكشف هذه الدراسة واقع وحيثيات جانب مهم من الموروث الثقافي القروي في الساحل السوري، وحضوره المتمثل في الأمثال الشعبية الريفية، بما تحمله من وظائف اجتماعية–اقتصادية–أخلاقية–جمالية، تدعم استقرار المجتمع وديمومته. فالمثل الشعبي باعتباره أحد أهم عناصر الثقافة الشعبية ودوره في عكس علاقة الفرد ببيئته ومحيطه الاجتماعي والثقافي، ليس فقط بما يحمله من قدرة على نقل التجارب الإنسانية فحسب، بل في قدرته على صياغة تلك التجارب صياغة شفاهية و بلغة شعبية فنية تخدم العملية التواصلية التفاعلية بين وحدات المجتمع بينها وبين المكونّات الأخرى للمجتمع الأكبر، والتي ترسم صورة معبرِّية عن حياة المجتمع، وبخاصة منه هنا ما يتعلق بريف الساحل السوري وذلك من جميع الجوانب المعاشية و الحياتية الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: المثل الشعبي، الوظائف الاجتماعية، الثقافة الشعبية.

* **أستاذ مساعد – قسم علم الاجتماع–كلية الآداب– جامعة تشرين– سورية.**

مقدمة:

تعد الأمثال الشعبية من أبرز عناصر الثقافة الشعبية في المجتمعات البشرية، المعبِّرة غالباً عن أنماطه الحياتية المختلفة من معتقدات، وقيمٍ، وسلوكيات أخلاقياته، وذلك لتغلغلها في معظم الجوانب الحياتية اليومية للأفراد، بما تمثلْ من علاقة تفاعلية بين الإنسان وبيئته الثقافية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.

لهذا يُفترض أن تشكل الأمثال الشعبية انعكاساً لخبرات الناس وتجاربهم التي عاشوها عبْرَ حياتهم اليومية والتي تمت صياغتها على شكل جملٍ تجريدية قصيرة تعبر بالضرورة عن وجهة نظر ما، وبما يخص مسائل حياتية واجتماعية محددة، تهمُّ المجتمع، ما يهئ لتبلور ثقافة الجماعة بقيمها، ومواقفها، ومبادئها، وفلسفتها، وسلوكها، ومعتقداتها المتباينة بين مجتمع وآخر.

من هذا المنطلق نجد بأنَّ دراسة المثل الشعبي، يُشكل وسيلة معرفية لتفهم الموقف الجماعي من القضايا التي واجهت وتواجه المجتمع عبر أحقاب الزمن، وتُعدُّ كفيلة بكشف طبيعة هذا الموقف ونوعيته، إضافة إلى كونها وسيلة من وسائل كشف الحقائق والأحداث التاريخية، والتصورات الذهنية لأفراد المجتمع وهم يواجهون موقف ما يقتضي الحكم عليه بما يكشف، بشكل أو بآخر، خفايا بعض قضايا المجتمع، والتي ربَّما قد تتجاوز ذلك لتساهم بمجملها في تشكيل أنماط واتجاهات وقيم المجتمع.

بهذا يُشكّل المثل الشعبي بمضمونه وحيثياته موضوعاً من موضوعات الأنثروبولوجيا عامة، والأنثروبولوجيا الثقافية بشكل خاص، ولاسيما فيما يتعلق بميدان الموروث الشعبي أو "الثقافة الشعبية"، وهو ميدان مهم نستطيع من خلاله أن نستثمر العلم الأنثروبولوجي ونوظفه في قراءة الإبداعات الشفاهية المأثورة أو ما يمكن تسميته التراث الشفاهي كما في (الأمثال الشعبية) التي تُجْلي الغموض عن الكثير من الأفكار والعواطف الإنسانية المختلفة التي كانت سائدة منذ أزمنة بعيدة والتي كانت تُشكل المحرك الأساسي للإنسان في مختلف جوانب حياته، حيث يمكن لنا توظيف هذه القراءة المتواضعة لمضامين وتوجهات الأمثال الشعبية، في الكشف عن المدلولات والوظائف الاجتماعية لها، وتحليلها منطقياً، لاستشراف السمات العامة لثقافة مجتمع البحث ونعني به هنا المجتمع القروي في الساحل السوري.

أهمية البحث وأهدافه:

تنطلق أهمية البحث في هذا الموضوع من اعتبارين أساسيين، أحدهما ذاتي والآخر موضوعي، ويتمثل الاعتبار الذاتي في:

1- محاولة الكشف ما أمكن عن حقيقة الأمثال الشعبية ودلالاتها الاجتماعية، من خلال تحليل ماهيتها والوظائف البنيوية التي تقوم بها، في توجه عام لتحقيق استقرار المجتمع ودوام استقراره.

2- إعادة إحياء الثقافة الشعبية للمجتمعات الريفية، وخاصة ما يتعلق منها بالثقافة الشفاهية المتمثلة(بالمثل الشعبي)، لما لهذه الثقافة التراثية التقليدية، من دور مهم في توجيه أفراد المجتمع ودعم وحدته وتعزيز قدرته على مواجهة التحديات التي يتعرض وما يزال يتعرض لها مجتمعنا العربي السوري.

أما ما يتعلق بالمنحى الموضوعي لدراسة المثل الشعبي القروي فيتمثل في:

1- إنّ المثل الشعبي في المجتمع الريفي هو تعبير حقيقي عن سلوكات اجتماعية معينة تلقي من خلالها الضوء على الحالة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التي كان وما زال يعيشها الريفيون، بالتالي يمكن القول إنَّ الأمثال الشعبية تعكس التصور الثقافي العام للمجتمع الريفي.

2- لم تنل الأمثال الشعبية في مجتمع الريف الساحلي حظها الوافر من الدراسات الأنثرو اجتماعية، مقارنة بما نالته- على سبيل الذكر- الحكاية الشعبية التي عرفت رواجاً واسعاً في الساحة الأدبية والفكرية عبر العقود الأخيرة.

أما مبررات اختيارنا لقرية بللوران لتكون إنموذجاً ممثلاً لريف الساحل السوري فهي تنطلق من فكرة التقارب في الخصائص الاجتماعية، وما تعيشه هذه المجتمعات من تماثل بنيوي واضح إلى حد يُقارب في مضمونه ومحتواه ذلك التطابق في ثقافته الاجتماعية والجغرافية والاقتصادية، وما إلى ذلك من التقارّب العميق في التراث الريفي العام، بما فيه التراث المادي والمعنوي على حد سواء، والأمر الذي يكشف عن ذلك التوافق العام ما يُستخدم من لهجة محكية ورموز شفاهية وتجريدية تعبر عن ماضي هذا المجتمع وحاضره الاجتماعي والفكري، إضافة إلى أهمية الموقع الجغرافي الذي قد تمثله قرية بللوران من حيث أنها تشكلُ موقعاً وسطاً بين القرى الواقعة على (الشاطئ)، والقرى الواقعة على الهضاب والمرتفعات في سلسلة الجبال الساحلية.

أما أهداف البحث تتمحور حول الأفكار و البنود الآتية:

1- التَعرف على نشأة الأمثال الشعبية والإحاطة بها، ومن ثم التعريف بالمفهوم.

2- التعرف على الوظائف الاجتماعية التي تؤديها الأمثال الشعبية السائدة في البيئة الريفية الساحلية.

3- التعرف على الدلالات الاجتماعية للأمثال الشعبية في البيئة الريفية الساحلية، وبالتالي الصور التي **رسمتها للمجتمع الريفي في الساحل السوري.**

مصطلحات الدراسة ومفاهيمها: ولعلّ من أهمها:

1- **المثل الشعبي:** هو موروث اجتماعي ثقافي يتم تداوله بين أفراد المجتمع، لتشبيه شيء بشيء مثله، يوحي بعمل أو يصدر على وضع من الأوضاع، ويتميز بالاختصار والتنظيم والجاذبية في الأسلوب، والدقة في صور البلاغة(سناد، 1992،12). والمثل الشعبي السائد في القرية التي سنتاول مفهوم المثل فيها: هو ذلك الموروث الاجتماعي الذي يحمل في مضمونه أبعاداً ودلالات ووظائف (اجتماعية-اقتصادية-أخلاقية- جمالية- جغرافية).

التراث الشعبي: هي تلك"المأثورات المادية والروحية الشعبية المتوارثة بشكل مستمر من السلف إلى الخلف ومن الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد، فهو موروث جمعي يتعلق بالبشر وطرق اتصالهم ببعضهم البعض"(سَمُّور، 2011، 9).

ب- الثقافة: هي "ميراث مركب من عناصر اجتماعية وسلوكية ومادية يقوم الأفراد بنقلها من مرحلة تاريخية إلى أخرى، وذلك بفضل تداخلها في سلوكهم، وقدرة عناصرها على الانتقال من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل" (دياب، 2006، 178).

الثقافة الشعبية: "هي بمثابة الطرق والأساليب التي يتكّيف الناس بها طبقا لظروف حياتهم الاجتماعية والثقافية".(ابراهيم، 2006، ،161).

3- **الوظيفة الاجتماعية:** يُقصد بالوظيفة الاجتماعية من المنظور السوسيو- أنثروبولوجي " الدور لذي يلعبه النظام في البناء الاجتماعي الشامل "(أبو زيد، 1965، 57).

الأدب الشعبي: هو "ذاكرة الشعوب ووعيها الشفوي المحكي، والمرآة التي تعكس بصدق الماضي بكل ما ينطوي عليه من تقاليد وعادات اجتماعية وطقوس دينية ومشاعر فردية أو جماعية"(الرشدي، 1954،9).

القريـة : تعدّ القريـة أكثر مظـاهر الاسـتقرار البشري انتشـاراً علـى سـطح الأرض؛ ويرجـع ظهـور القريـة إلـى العصـر الحجري الحديث الذي انتقل فيه الإنسان من مرحلة الجمع والالتقاط ومطاردة الحيوانات التي تهيم في الفيافي والقفار إلى مرحلة الرعي والزراعة؛ وهكذا انتقل الإنسان من مرحلة البحث عن الطعام إلى مرحلة إنتاجه عملياً، الأمر الذي اقتضى منه الاستقرار في مكان محدد تتوفر فيه شروط الإقامة الموضوعية؛ فباكتشافه الزراعة أصبح مُنتجاً للغذاء، الأمر الذي أدى إلى اضطراره للارتباط بمكان معين دون غيره، حيث أقام قرب الأرض التي يزرعها. من هنا تبدّى المظهر الأول لتجمع عدد من الناس في مكان واحد، حيث تُعدّ القرية من أقدم المجتمعات المستقرة التي عاش فيها الإنسان. وهكذا " أخذت تعرف المجتمعات الأولية معنى مفهوم القرية، حتى إننا لا نكاد نسمع بجنس من الأجناس أو شعب من الشعوب، إلاّ وقد استقر في ظل النظام القروي أجيالاً طويلة " (المقدم، 1999، 7).

منهجية البحث:

ينطلق البحث من رؤية أنثروبولوجية معرفية بغية الكشف عن الوظائف الاجتماعية التي يؤديها قول المثل الشعبي ومدلولاته الثقافية التي تظهر في أحاديث الناس في المجتمع المدروس لذلك اقتضت الضرورة البحثية أن نمزج بين منهجين اثنين، هما:

1- **المنهج التاريخي:** الذي يتجه لتتبع مسيرة نشأة الأمثال الشعبية وتطورها تاريخياً عبر الحركة التاريخية للمجتمع قيد الدراسة.

2-**المنهج الوظيفي:** و هو أحد المناهج المهمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ويستخدم عادة في تحليل بنى الظواهر الاجتماعية في علاقاتها الوظيفية التبادلية مع مثيلاتها ضمن إطار الثقافة الشعبية في القرية، لغرض تقديم تفسير أنثروبولوجي لها، ونعني به هنا دراسة الوظائف التي تقوم بها الأمثال الشعبية في المجتمع الريفي الساحلي، وبالتالي معرفة مدلولاتها الاجتماعية وما بينها من اعتماد وظيفي متبادل، قد يؤدي إلى ولادة ظواهر ثقافية جديدة لم يكن ليعهدها البناء الاجتماعي من قبل.

آليات جمع البيانات ووسائلها:

1- **الملاحظة المباشرة:** وهي من أهم أدوات جمع البيانات الميدانية، فمن خلالها يتم رصد الظواهر الاجتماعية عن كثب من خلال المعايشة اليومية لحياة الإنسان في المجتمعات المدروسة، وتكون هنا من خلال معايشة الحياة اليومية للإنسان الريفي في قرية بللوران، حيث يظهر المثل الشعبي واضحاً في دعم قضايا المجتمع وتكريس قيمه الداعمة لاستقرار المجتمع، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على مختلف المكونات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع قيد الدراسة في القرية الساحلية.

2- **المقابلة:** تُعد المقابلة الأداة المنهجية الأكثر استخداماً في جمع البيانات الأنثروبولوجية والتي يمكن أن تتوافق مع طبيعة البحث حول الأمثال الشعبية في القرية، ويمكن استخدامها عند البحث في ظواهر اجتماعية لا تسمح بإجراء الملاحظة بالمشاركة، لهذا يمكن اعتبارها أداة أساسية في مواضيع الدراسة التي قد تتناول أحداث أو وقائع وقعت في الزمن الماضي (انظر: غانم، 2006، 280-281).

وقد تقتضي الضرورة البحثية أيضاً اللجوء **لمصادر استقصائية** أخرى لا يمكن للباحثين في مجال البحوث والدراسات الميدانية (الحقلية) الأنثروبولوجية تجاهلها أو استبعادها، ولعل أهمها:

– **المسنون** : وهم جماعة **الإخباريين** الذين يشكّلون أحد المصادر المهمّة للمعلومات حول القضايا الموروثة، باعتبارهم حفظة التراث، إذ يمكن الاسترشاد بما يقدمه هؤلاء من أمثال شعبية بحكم أنّهم معاصرو الزمن الماضي والشهود عليه، وبما آلت إليه تلك الأمثال – عبر تعاقب الأجيال – وانتقالها من الأسلاف الأوّلين. وبالطبع لن نقف عند مسألة نقل المثل فحسب، بل سنعمل على تدقيقه والتأكد من مصداقيته، وذلك بإجراء تقاطع في المعلومات التي سيتمّ الحصول عليها من هذه الشريحة الاجتماعية لضمان الصدق والصحة والأمانة في عملية النقل قطعاً لحالات الاسترسال أو الاختلاط التي يمكن أن تنتاب ذاكرة أو مخيلة بعض كبار السن تحت تأثيرات الوهن الذهني أو مضاعفات ما قد يتركه التقدم في العمر. وقد يتطلب الأمر أيضاً استخدام بعض الأدوات والتقنيات الإضافية الأخرى التي يمكن للباحث توفيرها، أملاً في سد الثغرات التي قد تؤثر على مكانة البحث العلمية، ومنها :

–جهاز تسجيل صوتي حيث الضرورة العلمية تقتضي إجراء المقابلات مع بعض الأفراد، بهدف التوثيق الفوري للأحاديث والتي قد يتعذَّر تدوينها أو حفظها مباشرة لحظة إجراء المقابلة، فتشكل تلك التسجيلات إرثاً يمكن العودة إليه في كل لحظة، وعندما تقتضي الضرورة التوثيقية للمعلومة.

مجالات الدراسة:

1– المجال المكاني : ونقصد به الحيّز أو النطاق الجغرافي الذي تجري فيه الدراسة الميدانية الحقلية، أي المجتمع الذي هو موضوع البحث، ونعني به (قرية بللوران) التي تم اختيارها لتكون أنموذجاً لدراسة الأمثال الشعبية ووظائفها في ريف الساحل السوري، بالارتكاز على مجموعة من المبررات المنطقية التي تم التعرّض لها سابقاً ويكون ذلك عبر استخدام البحث الأنثروبولوجي في ضوء مقتضيات المنهج الوظيفي.

2–المجال البشري : يتضمن هذا المجال جمهور البحث الذي تشمله الدراسة، و يشكل مجموع الوحدات الاجتماعية التي سيُسقط البحث عليها، ونعني بها جمهور من المسنين ومن في حكمهم من أبناء المجتمع من أصحاب المعرفة والاهتمام بالتراث الشعبي الشفاهي، حيث يُعدّون هؤلاء الأفراد المصدر الأهم للأمثال الشعبية التي تراكمت عبر المسيرة التاريخية لمجتمع القرية، والتي ما زالت حاضرة في صلب حياتهم اليومية، مشكلّة الموروث الشعبي الذي يؤدي وظائف مختلفة في المجتمعات بما فيها المجتمعات القروية.

3–**المجال الزماني:** توزعت المدة الزمنية للدراسة على النحو الآتي:

أ–الإقامة في مجتمع البحث. ب–جمع البيانات وتفسير النتائج. ج–الطباعة وإخراج البحث بشكله النهائي.

الدراسات السابقة:

أولا– دراسة في عام 2014م، للباحثة (منى كشيك)، بعنوان "المضامين التربوية للأمثال السائدة في البيئة الدمشقية"، هدفت الدراسة للتعرف على أهم المضامين التربوية للأمثال الشعبية، وذلك من خلال تحليل المثل الشعبي في البيئة الدمشقية. لغاية معرفة المضامين التربوية التي تتضمنها تلك الأمثال، وقد اعتمدت الباحثة في دراستها المنهج الوصفي التحليلي مستعينة بأداة تحليل المضمون، بهدف الوقوف على أهم المضامين التي ترتكز على الكثير من القيم التربوية الإيجابية للمثل الشعبي، حيث تم إدراج تلك الأمثال ضمن خمس مجموعات بنيوية، وهي: "المضامين الاجتماعية،

الإنسانية، العلمية، الأقتصادية، الأخلاقية، مع الوضع في الحسبان مدى شيوعها ومدى تعبيرها عن قيم المجتمع ومتطلباته المختلفة بما يدعم استقرار المجتمع ودوام استمراره.

ثانياً– دراسة في عام 2006م، للباحث(سليم المبيض)، بعنوان "ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية"، يعد هذا النتاج مرجعا فكرياً يمكن الارتكاز عليه من قبل الدارسين في مجال التراث الشعبي لاعتماده منهجية تبويبية تناولت منظومة الأمثال الشعبية بحسب مواضيعها، إذ قام بتبويب تلك الأمثال انطلاقاً من الوظائف التي تؤديها في المجتمع الفلسطيني، فكانت تصنيفاته تقوم بحسب النسق الاجتماعي مثل: الأمثال السياسية، القرابية، الثقافية،...وهكذا، وقد قدم في كل مجموعة من تلك الأمثال تصوراً للموقف الذي قيلت فيه، وقد أجاد في بعض الجوانب المطروحة. ولكن ما يؤخذ على هذه الدراسة بأنها استبعدت في تحليلاته ما يؤديه المثل من وظائف وخلفيات ثقافية ومدلولات اجتماعية موجهة في خدمة المجتمع، وهذا ما ستقوم هذه الدراسة في العمل عليه من سد تلك الثغرة المنهجية في تناول هذا التحليل الاجتماعي، ومدى أهميته الأنثرواجتماعية.

النتائج والمناقشة:

إن التراث الشعبي السوري هو الروح السارية في عروق أفراد المجتمع لا بل وهي الجينات التي تنقل الصفات الوراثية من الأجداد إلى الأبناء ولعل أهم هذه الأشكال التراثية في المجتمع ما يدعى: (الأمثال الشعبية).

في الحقيقة تعدُّ نشأة المثل الشعبي غير واضحة المعالم تماماً إذ ليس هناك من يستطيع ليجزم في تأريخ نشأته ومكانه، لابل من الصعب حقيقة تأريخ لظهور الأمثال، وذلك لارتباطها الوثيق بظهور المجتمعات البشرية، فهي كاللغة وليدة التجربة الإنسانية، لهذا كانت نشأتها وفقاً لسنَّة النشوء والتطور، من هنا فقد عكست الأمثال الشعبية في المجتمع، حينذاك، بتفاصيله المختلفة، لتشمل حتى علاقة الإنسان بالظواهر الطبيعية كالصحارى والجبال، والظواهر السماوية من حركة الأجرام الكونية كالنجوم والقمر والأمطار واحتباسها، وسنن الخصب والجفاف والقحط وما إلى ذلك من عمليات حياتية واجتماعية تحقق للمجتمع ديمومته التاريخية.

إذ جاء في لسان العرب– في معرض تعريفه المثل– ما نصه: "الشيء الذي يُضرب لشيء مثلاً فيجعل مِثْلَها لتوثيق وقال الجوهري: ومَثَلُ الشيء أيضاً صفته...وإنما المَثَلُ مأخوذ من المِثال والحَذْوِ. ".(انظر: ابن منظور، 1994، 410).

فقد شاع المثل في أدبنا القديم، فانتشرت الآراء حوله معانيه وحيثياته، كما تعددت التعريفات التي تناولته؛ ومنها على سبيل المثال ما قدمه (ضياء الدين ابن الأثير): إذ يقول في المثل الشعبي بأنه:"الأسلوبُ البلاغيَ القصير الذائع بالرواية الشفاهيّة، المبنيُّ على قاعدة الذوق أو السلوك أو الرأي الشَّعبيّ، ولا ضرورة لأن تكون عباراتُه تامَّة التركيب، بحيث يمكن أن تنطوي في رحابِه التشبيهاتُ والاستعارات".(ابن الأثير، ضياء، 1995، 27).

كما يُعَّرف المثلُ الشعبيّ أيضاً بأنه "جملةٌ موجزة محكمةُ البناء، بليغة المعنى وواسعة الانتشار بين فئات الشعب، وتتبع من تجربة حياتية جمعية للأفراد وليست فردية".(جبر، المثل الشعبي، 2012، 10).

و"أسلوب المثل أسلوبُ الجملة القصيرة نسبيّاً، المُنغّمةِ في الغالب، المجازيّةِ دائماً".(الشعلان، 2004، 32).

وكما هو معلوم فإن المثل جزء مهم من الموروث الثقافي الشعبي الذي يحتوي على جملة من الأعمال الفكرية، والقرويّة، واليدوية، والفنون المختلفة لشعب من الشعوب...والموروث الشعبي ككل متكامل تتحد أجزاءه بتشكيلاتها المختلفة لتعطي صورة واضحة عن حياة الشعوب الماضية والحاضرة(**علوش، 2001،10**).

لهذا يُعدُّ المثل الشعبي حصيلة تجارب الشعوب المعبرة عن حياتهم اليومية، بما "يعبر عن حادثة، وعن ومضة حياتية بكل أبعادها، وظلالها، وتموّجاتها بلغة عامية ترتقي إلى مستوى التعبير الرسمي"(**حجازي، 2002،8.**).

من الملاحظ أنَّ هناك الكثير من التعريفات التي طالت المثل الشعبي، إلا أنَّ معظمها لم يخرج عن نطاق أن الأمثال الشعبية ومنها الأمثال المتداولة في القرية الساحلية، ما هي إلا تعبيرٌ شعبيٌّ عفويٌّ مختزل أو مكثف قد يحمل خلاصةَ خبرةٍ حياتية عن موقف أو مشهد له ارتباط بمجالات ثقافيّة اجتماعيّة، تتمحور وظيفته الاجتماعية، ضمن منظور تهذيبيّ، تعليميّ، ترفيهيّ، ومن خصائصه أنَّ له صفة الاستمراريّة، وهذا ما جعل من هذا التراث الشعبي مجالاً للدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية، أنطلاقاً من كون الأمثال الشَّعبية دائماً تمتلك طاقة تعبيرية دلالية تسمو عن المألوف المتداول من عاديّ الكلام.

في حقيقة الأمر غالباً تأخذ الأمثال الشعبية في الريف أهميتها من كونها تشكل الوجه التراثي للمجتمع الريفي، ومن اعتباراتها الوضعية والضمنمية، لأن مصدرها هم أفراد لهم رؤيتهم وخبراتهم الذاتية في مجتمع القرية، بينما تشكل الضمنية تلك الصورة عن حياة المجتمع القروي السوري في ريف الساحل في خلفياته المختلفة الثقافيّة والاجتماعيّة و القيمية تتحد من خلالها المواقف الجماعية لكثير من القضايا والأمور الحياتية اليومية التي تواجه الإنسان القروي في حياته اليومية– بما تشكل مرآة تعكس على الدوام صور أحوال النّاس الاقتصادية والذهنيّة والفكرية فهي غالباً ما تكون "أشبه بميزان نزنُ بوساطته رقي الشعوب وانحطاطها".(الميداني، د.ت.ن، **10**).

ويلخّصُ (كارل باكستورم) أهميّةَ المثل بالقول:

1– تتحدِّثُ الأمثال عن سعادة من يتداولها وعن شقائهم، وعن الغنى والفقر، والشرف والخزي، والجمال والقبح، والقوة والضعف، والعظمة والوضاعة.

2– والأمثال من الناحية العمليّة تريح النفس، وتسخر، وتمدح، ثم تهزل في الوقت الذي تتضمّن فيه أفكارا جديدة.

3– تلقي الدروس بأسلوب من المرح الحاذق، وهي مليئة بالأحكام السلبيّة، والحكمة العملية والعدالة(انظر: حسونة، 2002، 178).

ولعل الخصوصية التي يحققها المثل في المجتمع السوري عامة ومثيله في القرية الساحلية، ما يجعله في تباين عن بقية أمثال الشعوب، وذلك من كون بلدنا قد تعرَّض في السنوات السابقة لأزمة مركبة الأبعاد، خاض فيها المجتمع حرباً ضروساً على عدة جبهات مختلفة، ولعل من أهم تداعياتها البعيدة كان النيل من ثقافة المجتمع، وهويته الوطنية والقومية، ما كان لذلك الأثر الأكبرُ في الحفاظ على الهوية الوطنية للمجتمع من خلال اللحمة التي أبداها الشعب في مواجهة الفكر التطرفي التكفيري التزييفي للتاريخ السوري العريق، حيث بدأت تشكل الأمثال الشعبية نوعاً من التحدي في وجه الاستلاب الفكري والحضاري الذي حملته شعاره الجماعات الإرهابية التكفيرية، ما يؤكد حقيقة نزوع أفراد المجتمع نحو الإرتباط الروحيّ والتاريخيّ بالوطن، و ما يؤكد أصالة الهوية الوطنية والفكرية للشعب السوري منذ القدم وحتى الآن، لهذا غالباً ما تشكل الأمثال السورية رصيداً معرفياً وثقافياً يعكس فكر الصمود الشعبي وتحديه للحرب الشرسة التي تعرَّض لها البلد، ولعل هذه الخاصية تبرز تلك الأهمية التي اكتسبها التراث السوري كشكل من أشكال

الثقافة الشعبية التي أخذت موقعها المناهض للفكر السلفي الظلامي، ما يمكن أن يُشكل بدوره حقلاً جديداً للدراسات الأنثروبولوجية والاجماعية في المستقبل القريب.

روافد **المثل الشعبي:**

بهذا يمكن القول: إن المثل هو أسلوب بلاغي يعبر عن تجارب العامة، كما يصور مواقفهم في الحياة، والذي لاشك فيه أن جانباً ضخماً من فلسفات الشعوب يجد طريقه إلى الأمثال الشعبية، لذا شكلت الأمثال تلك المرآة الحقيقية لكل شعب، تصف بها أخلاقهم وعاداتهم، كما تشكل أيضاً شاهد على حالة لغتهم، والمعلوم أن العامة مولعون بأمثالهم لهذا كثيراً ما يتناظرون بها لتشكل جوهر أحاديثهم اليومية، لذلك فالمثل هو السائد في اصطلاحاتهم لتكون قاعدة حقيقية للسلوك الجمعي، إذ قلما يقصون حديثاً أو يعرضون أمراً إلا أيّدوه "بمثل شائع"، ليبدو وكأنه زبدة الحديث، وجوهر الأمر.(انظر: تيمور، 5،1986).

تمتاز الأمثال الشعبية وكما بينّا، بأنها تنبع من كل طبقات المجتمع دون استثناء، فالعجائز والفلاحون والصنّاع والتّجار وغيرهم لكل منهما منحاه من تلك الأمثال والمعبر عنها، فالأمثال غالباً ما تشكل بحد ذاتها مصدر مهم للمؤرخ والأخلاقي والاجتماعي بما يكشف عن أخلاق الأمة، وعاداتها، وعقليتها ونظرتها إلى الحياة، فالأمثال على الدوام تكون وليدة البيئة التي نشأت عنها، فالبدوي في الصحراء تكون أمثاله الشعبية مشتقة من طبيعة عيشه في الصحراء، حيث الجمال والخيام والأرض...إلخ، والذين يسكنون السواحل غالباً ما يشتقون أمثالهم من مشاهد البحر والسفن والصيد والسمك والرطوبة. فهي تدل على ما يستحسنه الناس وما يستقبحونه، أو على الأقل ما تستحسنه الطبقة التي نبع منها المثل وما تستقبحه، فيستطيع الباحث في أمثال أمة أن يعرف ما الذي تكرهه وكذلك ما الذي تحبه، وما الذي تعظمه وما الذي تستهجنه، كما يستطيع أن يعرف من خلال ذلك مقدار تقديرها للأخلاق من (كرم وبخل واقتصاد وإسراف وخيانة وأمانة وغدر وحرية وعبودية، كما يستطيع أن يعرف منها مقدار تدينها أو مروقها على الدين، وما هي الروابط التي بين الشخص وبين أسرته وبينه وبين أصدقائه وبينه وبين أمَّته... إلخ.

بهذا تعتبر الأمثال حقائق اجتماعية أخلاقية قائمة في المجتمعات البشرية، يأخذ بها الأفراد ويخضعون لها في معاملاتهم بعضهم مع بعض، فهي نوع من السلطة الأدبية التي لها تأثيرها على عقلية الناس وتصرفاتهم ولهذا يعتمدونها في دعم كلامهم ووجهات نظرهم ويؤمنون بها الإيمان القاطع لما لها من الانتشار والسيادة بين الناس، فهي تكون بمثابة دستورهم في الحياة الجارية ولا تقتصر طبيعة الأمثال الشعبية عادة على الكلام المحكي نثراً، ب قد تأتي أيضاً على شكل الشعر الموزون، مثل:

صلىّ وصام لأمر كان يقصده فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

وقد تكون **نثرا مسجوعاً** مثال ذلك:

في العجلة الندامة..... وفي التأنّي السلامة، أو: ضربني وبكى، سبقني واشتكى.

الاستنتاجات والتوصيات:

من هنا فالمثل الشعبي الذي يُعدُّ من أكثر أنواع الثقافة الشعبية الشفاهية انتشاراً بين الشعوب، وذلك من كونه يتداول بين فئات اجتماعية مختلفة، نظرا لخصائصه ومميزاته التي يتمتع بها وخاصة في المجتمعات القروية، حيث يظهر ذلك جلياً لدى الإنسان الريفي في حياته اليومية وفي تعاملاته وتفاعلاته مع الآخرين، إذ توظّف الأمثال الشعبية بكثرة، وذلك

انطلاقاً من خصائصها الفنية، و يُستثمر الأقوال أثناء الحوار بغية ضمان إقناع الأخر بأهمية ما يقوله المتحدث. إذ لا يمكن للمجتمع أن يستهين بتداول مثل ما ، إلا إذا كان متوافقاً مع عاداته وتقاليده وأعرافه وقيمه الدينية والأخلاقية والسلوكية.

لهذا يكون المثل عبارة عن أداة ضابطة لتوجيه سلوك الأفراد بمنتهى السلاسة والقبول الاجتماعي، بعيداً عن أي نزعة إجبارية أو إلزامية. فطبيعة المثل الشعبي غالباً ما تحدد وظيفته كأداة حقيقية للتخاطب والتواصل بين الأشخاص، لهذا فهو أداة تواصلية حقيقية بين الناس.

وفي العادة يأتي المثل الشعبي في ختام الحالة التي توافقه، من حيث نفيها أو حتى تأكيدها، لتضمينه أحكاماً تقييمية، من حيث إبداء الرأي من المواقف، سواء بإعطاء موقف تعارضي (سلبي) أو موقف داعم (إيجابي)، من هنا فالمثل الشعبي لا يظهر دون حاجة إلى ذكره أثناء موقف متوافق، وهذه الضرورة لابد أن تمس الوظيفة التي يؤديها بالدرجة الأولى ، على أن الأمثال إذا كانت لا تهدف إلى غرض تعليمي، فإنها تهدف من خلال تلخيصها للتجارب الفردية إلى نقد الحياة ، وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص في عالم الأخلاق. وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية. وللأمثال الشعبية في القرية دلالات ووظائف متعددة وذلك حسب الموضوع الذي تتناوله، والذي يمس فيما يمسه الإنسان في واقع حياته اليومية، و لعلّ من بين أهم الوظائف والدلالات التي يؤديها المثل الشعبي في القرية: **الوظيفة الاجتماعية**، والوظيفة الأخلاقية، والوظيفة الاقتصادية، والوظيفة السياسية، وغيرها من الوظائف التي ترتبط بالبيئة الجغرافية من (مناخ وطقس) في القرية.

1- الوظائف الاجتماعية:

للأمثال الشعبية وظائف اجتماعية متعددة منها ما يصور **الحياة العائلية** في القرية مثال ذلك:"طب الجرة ع تمها بتطلع البنت لامها"، لهذا المثل وظيفته الاجتماعية في الإشارة إلى أن الأم هي مربية الأنثى والمشرفة عليها، كما يُقال أيضاً:" خذوا البنات من صدور العمات"، للإشارة أيضاً إلى نفس الوظيفة الاجتماعية، لأن العمة في المجتمعات التقليدية كانت تساند الأمهات في تربية بنات الأخوة، وبذلك تُسهم مساهمة فعَّالة في تلقين الفتيات القيم الأسرية والاجتماعية السائدة.

أما عند الزواج لا يفتأ القروي أن يذكر المثل "خذ الأصيلة ولو كانت على الحصيرة"، وهذه دلالة على أن الأصيلة ولو جار بها الزمن وجردها من المال والرزق تبقى محتفظة بما هو أثمن وأكثر دواماً، ألا وهي الأخلاق الحميدة التي ورثتها عن عائلتها، وغالباً ما يقع على عاتق الأمهات لم شمل العائلة كلما عصفت بها رياح الأيام الصعبة. وقد تتدلل الفتاة وترفض من يرغب في الزواج بها لأن أسرتها تراه غير مناسب لها وغير لائق لإقامة صلة قربى بينه وبينها، لهذا فهي تنتظر طبقاً للمثل القائل" خلي العسل بجراره حتى تغلى أسعاره"، أي حتى يأتي "صهر مسند الظهر"، عندها تستطيع العروس أن تتباهى به أمام صديقاتها وأقاربها، وهي لن تنسى عندما تتزوج المثل القائل" لاتأمن بالرجال مثل المي بالغربال"، وعلى الرغم من إباحة تعدد الزوجات في الإسلام، فإن القروي في بللوران يستهجن الزواج الثاني انطلاقاً من قيم أخلاقية يؤكدها المثل القائل: " الضرة مرة ". فضلاً عن تضافر مجموعة من الأسباب التقليدية التي تجعل التنافر واضحاً بين الحماة والكنة، فضرب بصددها المثل التالي،مؤكدا الكره المتبادل بينهما:"مكتوب ع باب السما ما في كنة بتحب حما"، ولكن والدة العروس على الرغم من ذلك، توصي ابنتها بمعاملة زوجها وحماتها بالحسنى للتأكيد على المثل القائل: " يابنتي مين علاّكِ غير جوزك وبيت حماكِ"، أما في حالات مرض الزوج أو تقاعسه عن العمل لسبب من الأسباب صيغت الكثير من الأمثال التي تؤكد على تعظيم شأن الرجل بالقول: "الرجال في البيت رحمة حتى لو كان

فحمة". وقد تُسأل الأم عن أحب أبنائها إلى قلبها فتقول" الصغير تا يكبر، والغائب تا يحضر، والمريض تا يشفا"، أما عدا ذلك فكلهم سواسية لديها، لا تفرق بين ولدٍ وآخر لقناعة متأصلة في المجتمع بأنه ينتج عن التفرقة في المعاملة بين الأبناء نتائج سلبية وخيمة من الناحية النفسية ما يشير إلى جهل الأم بمسؤوليتها التربوية التي قد تهدم حياة طفلها النفسية والاجتماعية في المستقبل. أما لمن ينكر أصله ويترفع عن أهله غالباً ما يُقال له :" نسيت يا فلان أيام زمان اللي كنت فيه، وكعبك ها لمفسخ و الزبل محشي فيه".

ولما كان للعائلة أهمية كبرى في الحياة القروية فقد أكدت الأمثال أهمية الأهل في الذود عن كل فرد من أفراد العائلة الممتدة وفي الدفاع عن مصالحه وأهدافه، فهم يعملون دائماً لخيره ولمستقبله، وعليه أن يتبع نصحهم وإرشادهم لأن " مع أهلك ما بتهلك، لو رموك بالمهلك"." الدم ما بصير مي"، يللي ما في خير لأهله ما فيه خير للناس"، وفيما يتعلق بالعصبية العائلية التي كانت سائدة في القرية فهناك عددا من الأمثال التي كانت وظيفتها الاجتماعية تكريس لتلك النزعة العائلية، ومن أهمها المثل القائل: " أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب".

أمَّا الأمثال ذات الصلة بالنسق الاجتماعي و**التنشئة الاجتماعية** في القرية، فيلاحظ كيفَ وظفت الأمثال مسألة رعاية الأبناء وتنشئة الأهل لأولادهم، التي كرست مبدأ إحترام كبار السن لتأتي في صورة مثل شعبي وظيفته التعبير عن سلوك اجتماعي جمعي حول قضايا التنشئة والعلاقات بين الأفراد، منها: " إِنْ كِبِرْ ابنك خاويه"، "ابنك على ما ربيتيه وجوزك على ما عوَّدْتِيه"، وعن **قيمة احترام كبار السن وتبجيلهم** في مجتمع القرية إذ وظفت بعض الأمثال على التأكيد على احترامهم وتقديرهم لما يحملونه من خبرات وإرث اجتماعي ودور بناء في الماضي القريب؛ ومنها المثل الشعبي الآتي: "يللي مالو كبير مالو تدبير"، "أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة". أما عن **العلاقات القائمة بين الأقارب والأرحام** فهناك أمثال **وظيفتها الاجتماعية** تدعيم هذه الروابط الاجتماعية لدرجة التقديس، **منها:** " الظفر ما بيطلع من اللحم".

يُلاحظ مما تقدَّم، وعند التمَّعن ملياً في الأمثال الشعبية القروية أنها تُوظَّف للحديث عن هموم الناس وحياتهم اليومية وطرائق معاهم و سلوكياتهم في الوسط الاجتماعي–البيئي الذي يعيشون فيه،" يلي إيدو بالمي مو متل يلي إيدو بالنار"، لتبدو وكأنها تقوم بدور المرشد والناصح للفرد ومنها أيضاً: " اللي أوله شرط آخره نور"، و"اعمل خير وارميه بالبحر".

ففي هذا المنحى يُلحظ الدور المنطقي لحضور الأمثال الشعبية في الحياة الشعبية القروية في تصويرها للمظاهر الحياتية المختلفة، بما يُرسخ قيم المجتمع البناءة، وفي إظهار نوع من أنواع السلوك الإيجابي الذي يعبر عن تضامنية المجتمع وتكتله في وحدة اجتماعية تدعم تماسكه واستقراره على الدوام.

2- أما ما يتعلق **بالوظيفة الأخلاقية** للأمثال الشعبية، التي تعطي الأولوية للقيم الرفيعة التي تُسهم في التعريف بأخلاق وعادات وسلوك الأفراد وطرق تفكيرهم وأسلوب حياتهم، فضلاً عن دعم قيم الإيثار وتكريس وظيفة **التعاون** والتي تظهر في مثل: "نحلة واحدة لا تجني العسل"، "يد الله مع الجماعة"، حيث نجد إن أهل القرية غالباً ما يكونون يداً واحدة في الشدائد والمصائب، كما في التحضير للأعراس والمآتم، وفي العمل الزراعي....إلخ. ومن جهة أخرى فإن للصداقة أهميتها في مجتمع القرية وهناك من الأمثال ما يدعم حضورها في المجتمع، منها: "صديقك العتيق ولا أخوك الجديد"، **أو**"الصديق عند الضيق"، من منطلق أن الأصدقاء غالباً ما يساعدون بعضهم البعض وخاصة في الأزمات والملمات والظروف الطارئة، وعلى الرغم من أهمية الاصدقاء وعلاقات الصداقة الحقيقية فإن "عدو عاقل خير من صديق جاهل" ما للعقل من أهمية كبرى في رقي الإنسان ورفعته، فعن طريقه يصبح الفرد قوياً قادراً على مغالبة الشدائد، فالجاهل كثيراً ما يخطىء الهدف ويحيد عن جادة الصواب، لأن الحياة الإنسانية تعتمد على الفكر والتعقُّل في ملاحظة الفوارق بين الأحوال والظروف والمواقف للوصول إلى نتائج صائبة ومفيدة للمجتمع بكل وحداته.

لهذا يشب أبناء القرية على مبادئ تربوية خاصة بالمجتمع الذي يعيشون فيه، فالطفل منذ لحظة ميلاده إلى أن يصبح يافعاً ومن ثم شاباً تتردد على مسامعه تلك الأمثال القروية بمحتواها القيمي وما تحمل من مبادئ وقيم ومثل الحياة الريفية سواء في التخاطب بين الناس مثلاً " قالوا للديك صيح، قالهم، كل شي بوقته مليح"، " لا تشرب من بير وترمي فيه حجر، بل اعمل معروف وارميه في البحر"، فالتربية الريفية القروية تعتبر القاعدة الوطيدة التي تبنى عليها شخصية القروي فتقوِّم مسلكه، وعن طريق تربيته يُعلَّم أنَّ: "الباب إلي يجي منو الريح، سدو واستريح"، كما يُعلَّم الطفل ذلك التوجه الأخلاقي من خلال دعم هذا المثل: "يلي يدق الباب بيسمع الجواب"، لذا يجب على الفرد أن يكون مؤدباً في كلامه متأنقاً في حديثه بعيداً عن الهزء والسخرية، محترماً كبير السن محتشماً في مجلسه، لاضحك ولا كلمة بذيئة: "الضحك بلا سبب قلة الأدب"، لهذا يجب على الفرد ألاَّ يعيّر وألاَّ يجرح كرامة أحد: "لا تعيّرني ولا بعيرك، الدهر محيرني ومحيرك"، كما يجب على الفرد أيضاً ألّا يتدخل بشؤون الأخرين وخاصة في الأمور التي ليست من اختصاصه : بكل عرس إله قرص" دلالة على من يحشر أنفه في كل شيء، فهناك مثل آخر وظيفته التأكيد على أن التدخل في شؤون الأخرين يضر به: " ياداخل بين البصلة وقشرتها ما ينالك غير ريحتها "، ونتيجة لسوء تصرفه يُقال:" عند الضيق لا أخ ولا صديق" تأكيداً على أنَّ من يُسيء العمل والسلوك في حياته، فلن يأتيه العون من الغير، حتى من الأقارب، لأنه كان عاقّاً وغير بارٍّ بالأهل والأقارب، ما يجعله عرضة للوحدة في مواجهة أموره الشخصية ليأتي در المثل القائل:(ما بحك جلدك غير ضفرك). .

ولما كانت المرأة القروية ست البيت وعماده ومربية الجيل، فقد قيل فيها مجموعة من الأمثال التي سادت فيها النزعة الأخلاقية، فهم حين يتحدثون عن حسن خلقها وعن لطف معشرها يقولون:" ما باس تمها غير أمها"، إشارة إلى طهرها وعفافها، كما يقولون عند المقارنة بين امرأة فاضلة وأخرى: "فيهن جواهر وفيهن عواهر، وفيهن قواهر، ياساتر"

وقد تمت الحكم والأمثال في القرية للدلالة على **وظيفة جمالية أيضاً** مثال ذلك:

"صار له زمان ها القمر ما بان"، وهناك مثل يُقال للشخص الذي يمتلكه الحب والهيام تجاه محبوبته: " عين المحب أعمى" للدلالة على من يخطئ في اختيار حبيبه، والقروي له نظرة جمالية في اختيار الألوان المناسبة بحسب لون البشرة، كما يعرف التأنق في ملبسه، لهذا كانت الأزياء القروية ثروة فولكلورية تستقي منها دور الأزياء اليوم أجمل الموديلات، فقيل في ذلك "لبِّس الأسمر أحمر واضحك عليه"، ولعلَّ الوظيفة الدلالية لهذا المثل تتمحور حول أنَّ اللون الأحمر لا يناسب لون البشرة الداكنة، "لبِّس العود بجود" ، ولبس المكنسة بتصير ست النسا"، ولهذه الأمثال أيضاً دلالتها على سمو الذوق الإنساني الذي يبرز الجمال ومفاتن المرأة، فعلى الرغم من ذلك لا يمكن أن تخرج مضامين هذه الأمثال عن متطلبات عادات القرية وتقاليدها وتراثها فيما يتعلق بالملبس، هذا فضلاً عن الأمثال المتعلقة بالمأكل، فنجد منها مثل: "كول ع ذوقك والبس مثل ما بدها الناس"، وهذا المثل له وظيفة هامة تتمثل في احترام تقاليد القرية في اللباس حتى لا يتعرض من يريد الخروج على تقاليده للتحقير الجمعي، انطلاقاً من قدسية القيم الجماعية، حتى في مجال اختياره الملبس، وهو إذ يفضل أن تقع عينه على كل ما هو جميل، إلا أنه يرى: "ما في قمحة مسوسة إلا يجيها ألف كيال أعمى"، وبأن " كل عنزة معلقة بكرعوبا"، هذان المثلان يؤديان وظيفة الاطمئنان لمن لم يحظَ بقسط من الجمال، بأنه سينال نصيبه من الحياة الزوجية، و من يقوم بفعل سلبي، سيجري عليه الوبال بمفرده دون أن يمس الأمر غيره من الأهل أو الأقارب، وهذا ما يتعلق عادة بالأفعال التي لا تلقى استحسان المجتمع وموافقته. أما في إطار نظرة الأم لأولادها، هناك الكثير من الأمثال الداعمة لوجهة نظرها، في تفرد أبناءها بكياستهم وجمالهم، فجاءت هذه الأمثال لتؤدي تلك الوظيفة في التعبير الجمالي ضمن نطاق الأسرة ومن أهمها المثل القائل: " القرد بعين أمه غزال"، لكنهم

حذروا عند اختيار الزوج أن لا يؤخذ بأفضلية العامل الاقتصادي على العوامل الأخرى المتطلب أخذها بعين الأعتبار والدور الهام لعامل الجمال، فقالوا: "يا آخذ القرد ع ماله بيروح المال ويبقى القرد ع حاله"، الواضح أنَّ هذا المثل وظيفته الداعمة لدور الجمال على دور المال، رغم أهمية الجانب الأخير، وذلك للدلالة على أهمية الشخصية والتربية عند الاختيار للزواج، فقد يفنى المال ولكن الأخلاق تبقى، وعلى سبيل المقارنة بين طويل القامة وقصيرها جاءت الأمثال الآتية : " كل طويل هبيل، وكل قصير في الأرض فتنة"، و" ما في طويل بنى بيت، ولا قصير سند حيط"، وقد يتهكم شخص ما على آخر دون أن ينظر إلى عيوبه لأن: " الجمل لو بشوف حردبته، كان بيوقع وبتنكسر رقبته".

3- أما حول الوظيفة الاقتصادية للمثل الشعبي:

فمن المعلوم أنَّ الإنسان القروي يتسم بنزوعه للقناعة، التي "هي كنز لا يفنى"، ومثيلها من الأمثال أيضاً: "ع قد بساطك مد رجليك"، "ولا تحسب موسمك قبل ما يتم استغلاله"، وهذا تكريس أنه يجب على الإنسان أن يكون قنوع في رزقه فلا يُحمل نفسه مالا طاقة له عليه. وأيضاً هناك من الأمثال ما يدعم حب العمل الذي يصنع الإنسان، ولا تستقيم الحياة **دون** ذلك، فبالعمل يعيش الإنسان ويستمر في الحياة، ومن منطلق أنَّ الإنسان العاطل عن العمل يُقدح بأبشع السمات، من مثل قولهم" أكل ومرعى وقلة صنعة"، "كل شي بالأمل إلا الرزق بالعمل"، "الحركة بركة"،"كما تزرع تحصد"، " زرع آباؤنا فأكلنا، ونزرع ليأكل أبناءنا"، " السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة"، "لاتؤجل عمل اليوم إلى الغد"، لهذه الأمثال وظيفتها الموجهة إلى تصوير البطالة كقيمة سلبية، بيولوجيا، ونفسيا، واجتماعيا، وثقافيا، واقتصاديا، وما تلحقه بالفرد من سلوكات سلبية خطيرة قد تدمر الذات الفردية والاجتماعية، وهناك من الأمثال التي تتمحور وظيفتها بتبيان دور الرجل ودور المرأة الاقتصادي سواء بسواء من مثل" الرجل جنّى والمرأة بنَّى"، أي أنَ الرجل عليه مهمة جني المال أو الثمار .... والمرأة وظيفتها بناء الأسرة.

كما لا تخلو الذاكرة الشعبية في القرية من أمثال تتمحور وظيفتها حول تصوير عواقب الطمع على الفرد من مثل" الطمع ضر ما نفع"، "عصفور باليد ولا عشرة ع الشجرة"، أيضاً هناك أمثال موجهة لمن لا يستطيع تحمل مسؤولية الزواج، فضلاً عن توجيه الناس نحو ضرورة إيجاد صيغة للتوازن في عملية الزواج، والإنتباه إلى مؤشرات وخلفيات الاقتران بطرفي زواج متماثلين في تدني الوضع الاقتصادي، ولفت الانتباه إلى المخاطر المعيشية الناجمة عن طرفي زواج فقيري المنبت، كمثل: "زوَّجو الفقير للفقيرة كثرت الشحادين".

في الوقت الذي دعمت فيه الأمثال الشعبية وشجعت على الزواج لما لهذا النظام من أهمية في إعادة إنتاج المجتمعات ودوام استقرارها، كمثل: " شيل اختي عني وخذ غلَّتها مني".

في المقابل أيضاً هناك بعض الأمثال الشعبية التي لعبت دوراً سلبياً في مجتمع القرية، وأعطت تصوراً سلبياً تجاه المرأة وتمييزها عن الذكر ، كمثل "عريس في البيت، ولا شهادة على الحيط"، الذي كان متداولاً كثيراً، خاصة عند السيدات كبار السن في القرية، ذلك نظراً للرؤية المجتمعية التي كانت سائدة سابقاً بأهمية زواج الفتاة، لأن في الزواج ستراً لها، فضلاً عن أنَّ الزوج هو السند بعد الأب والأخ، هذه النظرة التقليدية لتعليم الفتاة وضرورة تذويجها، قد تغيرت مع الانفتاح الذي شهدته القرية، والتطور الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي، الذي أصبح فيه تعليم الأنثى ودخولها سوق العمل، من الأولويات التي يسعى لها الأب والأم في القرية، جنباً إلى جنب مع الذكر.

4- كما تؤدي الأمثال في قرية بللوران **وظيفة إيكولوجية** تصطبغ بالصبغة المناخية:

إذ عُرِف عند أهل القرية دقة الملاحظة، ورقة الشعور، فهم يستطيعون أن يعرفوا مثلاً حالة الجو في كل شهر من غير أن يستخدموا لذلك أجهزة الرصد، لهذا وضعوا أمثالاً اختصت بكل شهر من أشهر السنة تشير إلى ميزاته المناخية وما

يتعلق بها من أحداث زراعية مختلفة، وغالباً ما كانوا يربطون بين المناخ وبعض النواحي الاجتماعية المتأثرة به، فجاءت هذه الأمثال ثمرة لكدِّهم وملاحظتهم و زبدة ذكائهم وسعة اطلاعهم في مختلف شؤون حياتهم، لهذا قويت تأثيراتها على مر الأيام لتجتاز بذلك الزمن لتصير جزءاً من منظومة تدعم حياة الناس، بعد أن تجزرت في الصدر، فتصبح شجرة امتدت أفرعها إلى الأجيال الجديدة. فمثلاً في كانون الأول تصبح الأرض في القرية جرداء وتبدأ رحلة تساقط أوراق الأشجار فصيلة الخضرة، باستثناء أوراق أشجار الصنوبر والزيتون وبعض أشجار السنديان الموجودة في القرية فكل شيء يؤذن ببدء فصل الخريف، وفيها يعبر الأهل عن ذلك بقولهم: "كل الأشجار تتعرى في كانون ما عدا الصنوبر والزيتون"، ولكن مع اشتداد موجات البرد في هذا الشهر حيث تضعف عمليات الزراعة، وتبدأ تخبو حركة الناس بحكم حلول فصل البرد، ما يدفع الأهالي للتعبير عن هذه الحالة الخاصة بإطلاق بعض الأمثال المعبرة عن هذا الموقف فيقال: "ما أنقى من قمرة تشرين ولا أظلم من عتمة كانون".

وقد لاحظ القروي في بللوران تقلب الجو في شباط بين الصحو والمطر فقال: "شباط ما على كلامه رباط"، كما قال: "شباط لو شبَّط ولَّبط ريحة الصيف فيه"،وقد برع أهل القرية بمعرفة تأثير الشمس على الجسم في هذا الفصل، فقد تؤذي البعض ممَّن يتعرضون لها، لهذا جاءت وظيفة أمثاله متحمورة حول **لفت الانتباه والتحذير**، منها مثل مقولة: "شمس شباط بتعلم على البلاط"، أما في آذار فهناك أمثال تخص هذا الشهر حيث تُوصي القرويون بعدم استنفاد الوقود لأن البرد غالباً ما يشتد في بعض أيامه خلافاً لما ينتظره الناس من صحو ودفء "خبوا القرمات الكبار لشهر آذار"، حيث تبدأ روائح الصيف في قرية بللوران بدءاً من حلول شهر نيسان الذي تبدأ الحرارة فيه بالأرتفاع، فيخرج القروي إلى حقله ليبدأ عمليات حرث أرضه لهذا قيل فيه "في نيسان إطفء نارك"، وافتح شبابيك دارك واسبح في الشمس لزنارك".

كما لموسم الأمطار في هذا الشهر في القرية زهوه، لأنه الهبة الالهية لتكريس مقومات تجدد الحياة وانبعاثها في كل عام، حيث الماء الوفير الضروري لخصب الأرض ونمو المزروعات، لهذا قيل فيه: "نيسان ميتو(مطره) تحيي الإنسان"، وكما ينتظر الفلاح أيضاً في شهر أيار المطر بفارغ الصبر حيث شاع هذا المثل:" أمطار أيار بتموَّن الفلاح وبقراته وبتزوِّج أولاده وبناته"، ومع اشتداد الحرارة في شهر تموز يُقال فيه: "في تموز بتغلي الماء بالكوز" رغم أن فيه يبدأ شهر الحصاد وتنضج فواكه الصيف من العنب والتين ويهيء المزارعون الأوعية الخاصة لادخار الغلال، لهذا يُقال أيضاً: "في تموز الحصيدة، هيء الأوعية للغلة الجديدة"، أما في آب فلابد للفلاح من مواصلة سعيه لدرس حصاده من غلال الحبوب(القمح، الشعير، الذرة الصفراء، وغيرها...)، وعليه إنجاز أعماله قبل حلول فصل الخريف، حيث تبدأ تباشير الإنقلاب في المناخ إلى الشتاء والبرودة. لهذا يجب إنجاز الأعمال قبل حلول أيلول، لهذا شاع في القرية هذا المثل: " اللي ما ذرى بآب شحم قلبه ذاب" كناية عن الجهد المضاعف الذي يجب على الفلاح أن يبذله في سباقه مع الزمن، وقبل حلول موسم المطر الذي ينتظر على الباب. كما أن لشهر أيلول خصوصيته المتمثلة ببدء المرأة القروية بصنع المربيات والمكابيس على اختلاف أنواعها فضلاً عن وتحضير العسل واللبنة المحفوظة بالزيت..إلخ لهذا قالوا:" في أيلول تمون لعيالك وشيل الهم عن بالك" ففيه تدخر المؤونة للأشهر التي تضمحل فيها الخيرات. وفي"تشرين الأول و الثاني، تتدرج الطبيعة رويداً رويداً بالانتقال من الصيف إلى الشتاء فقيل" مابين تشرين أول وتشرين ثاني صيف ثاني" وهذا المثل دلالة على تذبذب الطقس فيهما من حال إلى حال. وتشتد نزلات البرد والزكام وأمراض المفاصل، بفضل التقلبات السريعة للطقس، ما ينعكس على الصحة العامة للناس، فقالوا" برد التشارين توقاه وبرد الربيع تلقاه" كما قالوا" برد التشارين يبهر المصارين".

والخلاصة: فإنه لا ريب في أنَّ الأمثال بصورتها الشعبية الشفاهية وحتى المدونَّة فيها كانت نتاجاً لحركة المجتمع وصيرورته وعملياته الاجتماعية، لهذا فهي تُصاغ انطلاقاً من تجارب تقتضيها متطلبات الوجود وقيام المجتمعات البشرية، ويتناقلها الناس شفاهاً فيما بينهن فتعمل على توحيد الوجدان وتمتِّن الأعراف، وتصقل الطبائع والعادات، ولذلك تُعد منظومة الأمثال الشعبية بمثابة حكمة الشعوب وينبوعها الذي لا ينضب عبر الزمن.

المراجع:

1. أبو زيد، أحمد، البناء الاجتماعي، المفهومات. ج1، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، 57.
2. إبراهيم، عباس. التحديث والتغيير في المجتمع القروي. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006، 161.
3. ابن الأثير، ضياء، المثل السائد في في أدب الكاتب والشاعر. تقديم أحمد الحوفي وآخرون، دار نهضة مصر، 1995، 27.
4. ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مادة(مثل).
5. تيمور، أحمد باشا. الأمثال العامية، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، 1986، 5.
6. جبر، محمد كمال، المثل الشعبي. جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2012، 10.
7. حجازي، أحمد توفيق. موسوعة الأمثال الشعبية، دار أسامة للنشر، عمان، 2002، 8.
8. حسونة، خليل، اللوكلور الفلسطيني(دلالات وملامح). المؤسسة الفلسطينية للإرشاد، رام الله، 2002، 178.
9. دياب، عز الدين. دراسات أنثروبولوجية تطبيقية. الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع، دمشق، 2006، 201-302.
10. سمور، محمود محفوض. التراث في جيرود. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011، 9.
11. سناد، جلال، المثل ودلالاته الاجتماعي. دار الهجرة، دمشق، 12.
12. علوش، موسى، الأغاني الشعبية الفلسطينية. دار علوش للنشر، نابلس، 2001، 10.
13. غانم، عبد الله عبد الغني، الأنثروبولوجيا الثقافية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2006، 280.
14. كشيك، منى، المضامين التربوية للأمثال السائدة في البيئة الدمشقية. منشورات مجلة جامعة دمشق، دمشق، 2014.
15. الراشدي، أحمد صالح، الأدب الشعبي. دار المعرفة، القاهرة، 1954،9.
16. الشعلان، إبراهيم، الشعب المصري في أمثاله الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت.ن، 32.
17. المبيض، سليم، ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2006.
18. المقدم، مهى سهيل، المجتمع القروي، المؤسسة الجامعية للدراسات، 1999،9.
19. الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال. دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.ن، 10.